سوء العاقبة

بقلم الاديب نجيب افندي مشلاني

في سنة ١٨٦٥ كانت في احدى قرى لبنان ارملة فاضلة تقيَّة لم يبقَ لها على الارض الَّا ولد صغير اسمهُ يوسف عطفت عليهِ وصرفت قصارى جهدهـا في تربيتهِ الى ان ترعرع وبلغ اشدَّهُ. ثم اعتراها مرضٌ عضـال اشرفت بهِ على الموت فدعت ولدها ووحيدها واجلستهُ بجانب فراشهـا ثم امسكت يدهُ وقالت: «بنيَّ وحشاشة كبدي تراني على وشك مزايلة هذه الدنيا الفانية لالتقي بابيك وابائي في جنَّـة الخلود فلم اشأ ان افارقك دون ان أوصيك وصيَّتي الاخيرة اطلب اليـك الَّا تردَّها عليَّ فاموت مسرورةً »

فلم يسمع الشاب كلام والدتهِ حتى هطلت الدموع من شؤونهِ وكادت تخنقهُ العبرات. فلمَّا سكن جأشهُ اقسم لامهِ الأيمانات المحرَّجة بانهُ سيقوم بوصاتها ويسير على مشورتها. فاخذت امهُ تستحلفهُ بالله على التمسك بعرى الايمان الكاثوليكي الذي ورثهُ عن اجدادهِ ورضعهُ مع حليبها منذ نعومة اظفارهِ. ثم حضَّتهُ على ان يتخذ لهُ رفيقـةً عاقلة صالحة يقضي وإيَّاها سنيهِ بالسلام وخوف الله لانَّ المرأة الصالحـة على ما جاء في الاسفار الالهية نصيبٌ حسن دونهُ كل كنوز الدنيا. وقالت: «اياك يا بُنيَّ ان تنظر الى ثروتها وتضرب الصفح عن ادبهـا فتكون كجهَّال هذا العصر يسألون عن جَهاز الابنة (الدوته) ولا يبحثون عن اخلاقها وتُقاها فتسوء احوالهم ويرتحون كأس هنائهم». ثم اخذت مسبحتها وأهدتها لابنها كحرز يقيه فيُصلّي بها ويتذكر كلامها

ولمَّا اشتدَّت وطأة الداء على الوالدة المسكينة وغبت الى ولدها ان يأتيها بكاهن فقدم الكاهن وزوَّدها بالاسرار المقدَّسـة واسلمت روحها بهدوء وسكينة بين ايدي خالقها وفي غد ذاك النهار واروها اللحد مأسوفًا عليها وبقي الولد غائصًا بعدها في بحر الوجع وهو يبكيها بكاء مرًّا لكنهُ كان يعزّي نفسهُ بذكر فضائلها ويجدّد مقاصدهُ بان لا يحنث ابد الدهر ما وعدها بهِ

ويوسف هذا لم يكن مثريًا ولا محتاجًا وانَّما كان يأكل خبزهُ من عرق جبينهِ. فمرَّت عليهِ بضعة شهور وهو يزاول الفلاحة فيرتزق منهـا. لكنَّ شيطان المال لم يابث ان

يستفزّ قابهُ ويلعب بافكارهِ فطمح بصرهُ الى بعض مواطنيهِ رآهم ذهبوا الى اميركة بثيابهم اللبنانيَّة فمادوا لابسين « البنطالون والقميص المكويّ ». فاخذتهُ الغيرة منهم وامسى لا يحلم الّا في اميركة حتى تغلّب عليهِ هذا الفكر وباع اكثر ما اورثهُ ابوهُ من الارزاق ثم اعترف وتناول القربان الاقدس وشدَّ مسافرًا الى اميركة مطمح آماله

. . . . . .

مضى على يوسف ستَّة اشهر وهو في ضواحي سان فرنسيسكو يتجوَّل في القرى المجاورة ليبيع بعض العروض جاعلها كرأس مالهِ. وكان مع ذلك مداوماً على واجباتهِ الدينيَّة يتقدَّم على كلّ مواطنيهِ بالورع واستقامة المسلك ولا يهمل صلاة الورديَّة فيتلوها كل يوم لاجل راحة والدتهِ بذات المسبحة التي تسلَّمها من يدها ساعة وفاتها

فبينما كان يسير يوماً وصندوقة امتعتهِ على ظهرهِ والمسبحة في يدهِ يصلي اذ التقى باحد السوريّين اسمهُ غنطوس توطّن اميركة منذ سنين فابتدرهُ يوسف بالسلام وبعد ان تصافحا قال لهُ غنطوس: ما الذي بيدك يا يوسف

— هذه مسبحتي ورثتها من والدتي فاقضي الوقت بصلاتها

— ما هذا الدلك تاسك ؟

— اما كل كاثوليكيّ يتلو المسبحة فلمَ تتعجَّب مني ؟ وانت ألا تصلّي ؟

— أنا ! وهل تظنّني اتيت مثلك حديثاً من لبنان لاصدّق بهذه الخرافات النسائيَّة. اني قد عاشرت العالم المتمدّن وعرفت انَّ المال وحدهُ يشرّف الانسان. فدع عنك هذه الخزعبلات واياك ان تتظاهر بالصلاة امام الاميركيين فانهم يعدُّونك جاهلاً غير متمدّن ويزدرون بك. واجعل اهتمامك بجمع الاموال اذ لم تأتِ اميركة سوى لهذه الغاية فهذه نصيحتي اليك اريد بها صالحك ليس الّا

فلمَّا سمع يوسف هذا الكلام وكان خوّار القلب ضعيف العزيمة اطرق ساعةً الى الارض ثمَّ القى بمسبحة امّهِ في دغل الغيضة وشكر صديقهُ شكرًا حميماً على نصيحتهِ وواصل سيرهُ الى حيث نرى ومنذ ذاك الحين لم يعد يصلّي الّا نادرًا بل اتصل بعد زمن قليل الى اعمال كل فرائضهِ الدينيَّة ولم يبقَ لهُ من همّ الّا حشد الاموال باي طريقة كانت الى ان جعل الخبث دينهُ والمكر ديدنهُ

صرف يوسف ثلاث سنوات في اميركة وجمع في مطاويها مبالغ وافرًا من

الدراهم مكّنتهُ من العود الى وطنهِ مرتدياً « بالبنطلون والقميص المكريّ » اللذين حنّت اليهما نفسهُ الأمارة. لكنهُ ما اقام في قريتهِ بضعة اسابيع حتى استنكف من اهلهما العائشين بالهدوء والقناعة فلم تلذّ لهُ الاقامة بينهم في قرية حقيرة صغيرة وقد اعتاد ضوضاء المدن الكبار. وزادهُ نفوراً من قريتهِ انّ سكّانها كانوا من ذوي التقى يعتصمون بحبل الدين ويجدون فيهِ قوّة وسلواناً بل كنزاً ثميناً لا يساوى بهِ حطام العالم باسرهِ. وكانوا كلهم يلومون يوسف على قلّة دينهِ ويذكّرونهُ بما كان عليهِ اباؤهُ من التقوى اما هو فكان يحسبهم جميعاً جهلاء ويعتبر نفسهُ فريد عصرهِ عقلاً وذكاء. وعليهِ فانهُ ترك قريته واتخذ بيروت سكناً لهُ

وصل بيروت حيث اغواه الشيطان وسوّل لهُ ان يعيش بالبذخ والاسراف واللعب والمقامرة فاتلف بوقت قصير معظم ثروتهِ حتى تخوّف الفقر والذلّ فشرع يفكر في وسيلة ينجو بها من هذه الورطة ويداوم على ما اعتادهُ من المقامرة واللاهي فلم يجد سبيلاً لاصلاح امورهِ غير الاقتران بفتاة مثرية. وكان هذا الامر سهلاً لما عُرف بهِ ساجاً بين اهل بيروت من الغنى والجاه. وكان اذا ذكر وصية والدتهِ الاخيرة يقول: انّ عقل اميّ ساذج قديم ولم تكن تعرف شيئاً من امور التمدّن أو ليس الشبّان مثلي يقترنون بذوات المال والجمال فما يضرُّ بي ان اقتدي بهم ؟

ولم يمضِ زمن طويل حتى ظهر فكر يوسف الى حيز الوجود فاقترن بفتاة تربّت بالتنعّج والدلال بين القصف واللهو لم تعرف من الآداب الّا اسمها ومن الدين الا قشرتهُ. بيد انّ والدها كان ذا ثروة طائلة فخصّ ابنتهُ بقسم جزيل من مالهِ جعلتهُ بعد اقترانها بين يدي زوجها ثمّ جعلت تبذرُ مالها هي من جهة وزوجها من جهة أخرى حتى افنيا ما لديهما بعد سنين قلائل

وكان الله رزقهما في تلك الاثناء ولدين ذكراً وانثى فذهب الاوّل الى اميركة لمّا بلغ الخامسة عشرة من عمرهِ وانقطعت اخبارهُ عن والديه حتى لم يعرفا أهو من الاحياء ام من الاموات. وتزوّجت الثانية برجل تقي متوسّط الحال عاشت معهُ باتمّ الهناء.

ثمّ رأى يوسف ما ادّاهُ اليهِ اسرافهُ وخاف ان يشتهر امرهُ في بيروت فيسقط في اعين معارفهِ. وكانت امرأتهُ مع ذلك لا تزال تلحُّ عليهِ وتطالبهُ بمطالب جديدة. ولمّا لم تتمكّن من الحصول على رغائبها من لبس اثواب جديدة وركوب عربات ورشف كاس

الملذّات ساد القلق بينها وبين زجلها فنغّصت عيشهُ ونغّص عيشها حتى خيّل انَّ جهنماً أوت الى منزلها وفي آخر الامر عوّلا على ان يعودا الى قرية يوسف ليعتني ببعض بقايا ارزاقٍ لم يبعها عند سفرهِ الى اميركة

فعاشا هناك نحو سنة خاملي الذكر منفردين في بيت صغير بعيدٍ عن القرية حتى اذا كان احد ايام شهر حزيران دخل عليهما شابٌ جميل الطلعة حسن البزّة يناهز الثالثة والعشرين من سنّهِ وطلب اليهما ان يبيت عندها في تلك الليلة فرّحبا بهِ واحسنا استقبالهُ. فاخبرها انهُ عابر طريق اتى حديثاً من اميركة وانهُ راجع الى وطنهِ في شمالي لبنان. ثم تطرّق الشاب الغريب الى وصف اميركة وغناها واراهما اخيراً ما جمع من المال فبُهتا لسعة ثروتهِ وبالغا في اكرامهِ

فلمّا جنّهمُ الليل بسطا للشاب فراشاً في غرفة كانت على سطح الدار واوى كلٌّ الى فراشهِ. امّا المرأة فانّها لم تستطع رقاداً واخذت تفكّر في غنى ضيفها ثم تذكّرت ماضيها وتمثّل لخيالها كيف كانت زهرة بنات مدينتها وزينتهنَّ اصبحت اليوم فلاّحة متروية في هذه القرية الخاملة وبعد الغنى اصبحت بالفقر المدقع وبمثل هذه الافكار كان الشيطان يجربها حتى اخيراً وثبت من فراشها وذهبت الى بعلها وقالت لهُ: قمْ فالى متى انت ترقد والى متى احتمل عيشتك القروية. الموت ولا الفقر لقد بددت اموالي وصيرتني نظيرك فلاحة خاملة. وشرعت تسبّهُ وتشتمه وتلعن الساعة التي عرفتهُ بها. امّا بعلها المسكين فانهُ كان برجوعهِ الى وطنهِ عاد الى فطرتهِ الاولى من السذاجة ولكي يسكن روع امرأتهِ اخذ يلاطفها ويترضاها. امّا هي فابت الا تزيدهُ شتماً ولعناً واخيراً قالت لهُ: خذْ هذا السكين واذبح هذا الغريب لنأخذ ما معهُ من الدراهم ونعود الى سالف حياتنا المدنيّة

فارتعش الرجل عند ما سمع هذا الكلام وقال لها: ويحكِ لا ترهبين من الله أهذا حقُّ الضيافة. كيف نلطّخ ايدينا بدم شابٍ غريب ائتمننا على حياتهِ ومالهِ. وان كان صوت ضميركِ لا يردعكِ افلا تخافين من عقاب الحكومة فلربّما . . .

— عليَّ باخفاء الامر لانهُ ما من احدٍ من سكان القرية نظرهُ داخلاً علينا فهيّا واذبحهُ والا . . .

وكانت تارةً تتهددهُ وطوراً تتملقهُ وتصور لهُ لذة الغنى والثروة حتى اقتنع امّا

تخلصاً منهـا واماً طمعاً بنوال امواله واخذ السكين من يد امرأته وتوجه حيث يرقد الشاب واذ تقدّم اليه ليتمم مقصده الخبيث خانه قلبه ورقّت عواطفه وتأسف على نضارة شبابهِ ورجع الى امرأتهِ معتذرًا لها وقائلاً : حرام علينا ان نسفك دماً ذكيًا وهذا الشاب لم يعمل معنا شرًا . اشفقي على شبابهِ وهو في ربيع العمر . . . فاحتدمت المرأة غضباً وقالت لهُ بتهكم : انك لنذل جبان ليس عندك من عزم الرجال شيء . . واخذت منهُ السكين وذهبت الى فراش الشاب وبقلب صخري تقدمت اليه وذبحتهُ ذبح الشاة واخذت ما كان معهُ من الدراهم وجاءت الى زوجها متبجرقة وقالت لهُ : قم يا ايها النذل واحمل هذه الجثة واتبعني . . .

ففي اليوم الثاني لم يدرِ احد من القرية ما كان قد جرى من الاثم في ذاك المنزل الجهنمي الّا انهُ عند اصيـل النهار وقفت عربة امام المنزل المذكور وخرجت منها ابنتهما التي اسرعت وعانقت ابويها بسرور وهنّأتهما بوصول اخيها من اميركا واخبرتهما كيف انهُ مرَّ بها وقال انهُ قصد التنكر عليكما ليرى ان كنتما تعرفانهِ . فعندئذٍ عرف المنكودا الحظ ان الذي قتلاه ليلة امس كان حشاشة كبدهما ووحيدهما . . .

محادثة رابعة لغويّة

لحضرة الاستاذ رشيد افندي الشرتوني محرّر البشير ومدرّس الخطابة في كليَّة القديس يوسف

انجز خليل وعدهُ ورجع اليَّ بعد ثمانية ايَّام وبيده المقالة التي كتبها صاحب مجلة الضياء في الانتقاد على كتبة الجرائد وهذا خلاصة ما دار بيننا من الحديث :

(قال) رأيتُ في كلامك لفظة عَشَم بمعنى أمَل والحال ان صاحب مجلة الضياء ينتقد على كتبة الجرائد استعمال هذه الكلمة بالمعنى المذكور ودونك نص كلامه (في الصفحة ٦٣) « ويقولون لهُ في هذا الامر عشم اي امل وانما العشم في اللغة بمعنى الطمع واستعماله بمعنى الامل عاميّ » فهل لهذه الدعوى صحة ؟

(قلتُ) ان تفريقه بين الطمع والامل في هذا المقام هو غلط محض لان اللغويين كلهم متفقون على ان الطمع والأمل مترادفان فهم يفسرون الطمع بالرجاء والرجاء بالامل فيكون الطمع والامل بمعنى واحدٍ